

رأية الأحلام المطوية

شعر: فؤاد كحل

ويضيءُ بأنفاسه حولها ويضيءُ
خالقاً أبجدية ثورته العارمة
ويهيبُ بأبطاله أن يجيئوا إليه
وكم قاومَ الجيشانَ المفاجيءَ في لحظةِ
الحشر!
كم طمأنَ القلبَ مبتهجاً
بالذين يعودونَ بالنصر بعد مساءِ المعاركِ!
والراجلينَ وراءَ الصعابِ
وقد أمطرَ الوجهُ
وارتعشتُ في ملامحه الأرضُ والعاصفاتُ...

وحدها
بانتظار الذي غابَ دونَ احتفاءٍ
ولمّا يزلُ كلُّ شيءٍ على حالِ تكوينه
علَّ جيلَ البداياتِ يولدُ من حُلمٍ:
هاهنا الناسُ كانوا
يضيئونَ حالاتهم
وولاداتهم...
ويقيمونَ أعراسهم...
وماتمهمُ ..
وهنا الليلُ كانَ جميلاً
وكانَ النهارُ جميلاً
وعندَ الظهيرةِ كانتَ تطوفُ السواعدُ بالخيرِ
كانَ الزمانُ جميعاً جميلاً

وحدها
في سكونِ الأماكنِ مطوية
تتساقطُ عن وقتها الذكرياتُ:
ها هنا كانَ سيفٌ يبوحُ
وكانَ وجودٌ بهيَّ يفوحُ
من الخبزِ والحبِّ والشعرِ
من كلِّ معركةٍ في البداياتِ
من حمحماتِ الرناتِ
وما تبعثُ الخيلُ من نشوةٍ في الفوارسِ
كانتُ دياراً تضيءُ
لهباً.. ينكوبُ في حدقاتِ الوجودِ الفليحةِ
لحنُ الزغاريدِ متحداً بالحداءِ الفدائي..
كانتُ هنا قبةَ المجدِ ترهءُ أنداءها
فوقَ أجِّ الملاحمِ
وهي توشجُ زرقتها في انتصارِ
دفيءِ
تفوحٍ من وهجِ الأمنياتُ...

وحدها
تتذكرُ مبدعَ تحليقها
حيثُ كانَ يهيوها
قربَ سحرِ الدلالِ التي صقها
كالعرائسِ مزهوةً بالذهبِ

وكم أشرقت بالنساء العظيمات
رغم الردى أمسيات...!

وحدّها...!

ربّما يرجع الغائبون

تقول مؤانسة أفقها

ثم تكتّم بركانها

خشية من غياب يخون

وقد عطشت روحها...

والفناجين مقلوبة

لا تُدار على أحد..!

من يعيد لتلك البيارق هيبتها؟

أين فرساتها؟

فالذين أتوا:

عزباء عن المبدعين العظام

وقد ضيعوا بدء أحلامها في التجارة والصمت

منتعشين بشاشات حكّامهم

وظلام الكلام...

والطفولة شيبها إدعاء الأبوّة

لكنّها لم تزل تدرأ اليبس في وطن يتهمّد

وهي تضيء لنا ذكريات الذين توراوا هناك

وراء التلال القصية

والأرض توقظ تموزها

كي تهلّ الحياة مشعشة

تزدهي فوق أغصانها الأغنيات..

وحدّها

بين وقع خطّ الراحلين

تهيء أوقاتها بانتظار يد

ولهيب

وقوس حنين

وذكرى

وهرج.. وكرج

ومرج سواد.. وثلج...

وسرج...

لمن يترك الراحلون بقاياهم؟

من يزلّ عن الوقت- لو مرّة-

صدأ يتراكم؟

أين سيفقدنا التائهون؟

هل سنبقى كأعوبة في الزوايا؟

نباع ونشري سبايا؟

أيعلم أحفاد جيل السحاب

أين ضاعت حدود معالمهم في الزمن؟

كيف لم يترك الشهداء سيّاطاً

تعلم أبناءهم حبّ هذا الوطن؟

فتضيء الحياة..!

وحدّها

في رماد الطموحات

تحلم مجنونة بالخليل

يعانقها كلّ يوم صباحاً

وينشرها في الفضاء الأثيل

وقد ضاء حين ترفرف- من فرح قلبه

- ربما يرجع الميتون

واحداً.. واحداً

فالمعارك مثل الشهادة باخت!!

فهل من بشير يخبر عن غائبين

يقومون من قبرهم مطراً

أو يعودون من قفرهم بشراً

أو يشبون من صمتهم قمراً

ويضيئون ليلَ البطولةِ
والفرحَ المتوحدَ بالحبِّ؟!
هل عادَ منفيٌّ
ليخبرَ عن غامضين؟
هل رأى تحتَ هذه السجاجيدِ طلحيّةَ
كانَ أودعها الذاهبونَ إلى موتهمُ
في مجازرِ أيامهمُ
فاستحالتْ عسافيرُ أرواحهمُ
أنجماً في الفضاءِ الحزينِ؟!
هلَ وهلَ من ربيعٍ فمُ
أو ضياءِ دمٍ
حيثُ تنفجرُ الزلزلاتُ..؟!

وحدّها
في المنازلِ لا تستكينُ لموتِ بطيءٍ
يفاجئها كلَّ يومٍ
من اللاهثينَ وراءَ سرابِ الحكوماتِ
تحلمُ أكثرَ مما تخبئه الذكرياتُ
بأفقٍ يهلُّ عليه يمامُ الهلالِ
فهيا خذي شهقةَ
ضدَّ هذا الجنونِ المحاصرِ
يا رايةَ الشعبِ، وانتظري:
ربّما شقشقَ البابَ أهلٌ!
ربّما فاحَ صبحُ حوارٍ
فأدهشَ قولٌ
وأزهرَ فعلٌ..!

ربّما حطَّ قطرُ الندى
فاكتسى بالأزاهيرِ سهلاً
وتلّ..!
ربّما فرّ طيرٌ
فأشرقَ غصنٌ
ورفرفَ ظلٌّ..!
ربّما نغوشتُ كالعصافيرِ أفندةَ
فانتشى حولَ قبرةِ الحبِّ ليلٌ..!
ربّما ضاءَ فجرُ النوافذِ والبندقياتِ
وامتلأتْ كلُّ هذه الخوابي بماءٍ يجلّ..!
ربّما أصبحتُ أمنا الأرضُ
تمنحُ حالاتها دونَ خوفٍ-
فتملأ كلُّ الحواصل بالخيرِ
ريانةً لا تملّ..!
ربّما قطرتُ ماءً سكرها في الدنانِ العناقيدُ
وازدانَ في الكونِ عدلٌ..!
ربّما انزاحَ عن عتباتِ المنازلِ ذلٌّ
وعبقرَ في الروحِ هيلٌ..!
ربّما فرّختُ منكِ بعضُ الأساطيرِ وانطلقتُ
زغرداتُ

إذنْ أشعلي برفيفكِ حلمَ المدى
واستعدّي لفجرِ الندى
ربّما تُبعثُ المعجزاتُ..!!